هوامش

تحولت تكرونة الأمازيغية البسيطة والبدائية إلى قرية مهجورة بعدما تركها أهلها خشية الانهيارات الأرضية، ويحلم القلة الباقون فيها بعودتها إلى ما كانت عليه بعد ترميمها

يحلم من بقي في تلك القرية بعودة الحياة إليها (العربي الجديد)

تكرونة

قرية أمازيغية مهجورة في تونس

تونس ـ **مريم الناصري**

على هضبة بارتفاع قرابة 300 متر، وإلى الشمال من مدينة النفيضة في محافظة سوسة، شُيدت قرية تكرونة، أو القرية الأمازيغية كما تُسمى، بكل ما فيها من عبق الزمن القديم. تكرونة ذات المعمار الفريد وجمال البيوت بجدرانها البسيطة، وألوانها الهادئة، اختارها عدد من السكان الأمازيغ لتشييد منازلهم التي بُنيت من الحجارة بطرق بدائية جداً، ما جعل القرية تُعَدّ من بين أقدم القرى الأمازيغية، بحسب وزارة الثقافة التونسية. وتقع تكرونة تحديداً في منطقة النفيضة بمحافظة سوسة التي تبعد عن العاصمة 100 كيلومتر. وتحافظ القرية على اسمها الأمازيغي القديم، الذي يرتبط باسم قبيلة أمازيغية. ويصعد الزائرون إلى تلك الهضبة عبر مدرج صخري للمترجلين، إذ لا يمكن الوصول إلى قمتها إلا سيراً على الأقدام. كل شيء في القرية قديم جداً. فالمنازل بُنيت من الحجارة على الطريقة التي تُبنى بها القرى الأمازيغية في تونس جنوباً. الشكل نفسه وطريقة البناء نفسها والحجارة نفسها. كل منزل له مدخل عبر باب خشبي كبير تلج من خلاله إلى غرفة صغيرة تسمى في تونس السقيفة التي تستقبل فيها الزوار قبل إدخالهم إلى باحة المنزل، لتجد تلك الباحة في المنتصف وتحيط بها عدّة غرف أسقفها مقوسة في شكل منحنٍ مثل القصور أو أسقف المساجد. ولا تشعر خلال الصيف بحرارة الطقس داخل تلك الغرف، ولا بلفح برد الشتاء. فقد شُيِّدَت من الحجارة الطبيعية التي تحافظ على جوّ معتدل داخلها. وتشرف تلك المنازل على السهول الممتدة المغروسة بالزياتين وحقول القمح والشعير بمحافظة سوسة.

وتُعَدّ تلك القرية من أكثر القرى التي يُقبل عليها السياح من مختلف الجنسيات، إذ تتميز بروعة البناء وتناسق العمارة، التي تعكس بوضوح تاريخ العمارة الأمازيغية القديمة من خلال البيوت المبنية بالطوب والحجارة، وهي المواد الأساسية التي كانت تستخدم منذ قرون لبناء الدور في تونس، وفي تلك القرية تحديداً التي كان لا يزيد تعداد سكانها على نحو 600 شخص. لكن الانهيارات الصخرية المتكررة دفعت السلطات إلى إغلاق القرية أمام السكان المحليين وإغلاق بعض المرافق الترفيهية الموجودة فيها، وإخلاء جميع سكانها، بالإضافة إلى منع صعود الزوار إليها، إذ أصدرت ولاية سوسة في 30 أغسطس/ آب 2023، قراراً إدارياً يقضي بوجوب إخلاء السكان من المناطق المهددة بالانهيار بالقوة بعد محاولات عدة للتفاوض معهم، وذلك نظراً لأنّ «خطورة الوضعية الحالية لمنطقة تكرونة تهدد سلامة سكان القرية، وخصوصاً أن المنطقة كانت على أبواب أمطار الخريف والشتاء الموسمية» آنذاك.

كذلك وقع الاتفاق على «إعداد تقرير مفصل عن الوضعية ورفعه إلى أعلى هرم في السلطة وإجراء طلب موحد من الإدارات المتداخلة كافة، وعلى رأسها السلطة الجهوية، لعقد مجلس وزاري خاص بالموضوع في أسرع وقت ممكن». العديد من سكان تلك القرية هجروا بيوتهم منذ سنوات، فيما امتثل أغلب سكان القرية لقرار الإخلاء، حتى بات المكان شبه قرية مهجورة. خلال التجول في أغلب الأزقة الضيقة لتلك القرية، لا ترى حركة فيها ولا تسمع أصواتاً سوى صفير الرياح وطقطقة أبواب المنازل، بسبب قوة الرياح في أعلى تلك التلة. وباتت جدران بعض البيوت متصدعة، وبالكاد تكون حجارتها متماسكة. كذلك فإن أبوابها الموصدة بعضها مكسور تماماً بسبب عدم ترميمها، حتى باتت خاوية لا تحمل سوى ذكريات من كان يعيش فيها. البعض رفض أن يهجر مسكنه في تلك القرية، ولم يعد يعيش فيها سوى ثلاث عائلات. توقد الحاجة ذهبية الحطب في فرنها التقليدي من الطين لتطهو الخبز في باحة منزلها المطل على مساحات شاسعة من أراضي الزيتون، وتلقي بصرها على أبعد نقطة على تلك الأراضي الشاسعة الممتدة، وكأنها في أعلى قلعة أو حصن تاريخي. تقول إنّها عاشت طفولتها في تلك القرية مع الأهل والجيران، تتذكر تفاصيل المكان وأغلب سكانه الذين رحلوا تاركين وراءهم بيوتاً باتت مظلمة لا روح فيها، بعد تهديدهم من قبل القوة العامة لإخلاء المكان. ولم يعد حتى الزائرون يتوافدون إلى المكان بالعدد الكبير كما السابق، بسبب تشديد الرقابة على منافذ القرية لمنع الزوار خوفاً من أي انهيار قد يحدث فجأة، وخصوصاً بعد انهيار صخرة كبيرة وقعت على بعض المنازل». تضيف: «لم تسبب الحادثة أية أضرار أو إصابات بشرية. مع ذلك، اتخذت السلطات قراراً بإخلاء المكان. ولكن أنا وبعض السكان رفعنا قضية، مطالبين بترميم المكان وعدم الامتثال لقرار إخلاء بيوت تحمل ذكريات عشرات الأجيال منذ قرون».

يحلم من بقي في تلك القرية بعودة الحياة إليها وترميمها بدل طردهم منها خشية انهيارها في أية لحظة. وتشير فاطمة (اسم مستعار) إلى أنها ومن بقي في القرية ما زالوا يتلقون تنبيهات مستمرة بإخلاء بيوتهم. ولكنها ترفض ترك منزل عاش فيه 13 جيلاً تقريباً. وعلى الرغم من بقائها وعائلتين فقط في تلك القرية، إلا أنها لا تشعر بالخوف أو الرهبة من المكان الموحش. لا تزال تعيش على أمل ترميم تلك القرية والسور الذي يحيط بها وعودة سكانها الأصليين.

باختصار

بُنيت المنازل من الحجارة على الطريقة التي تُبنى بها القرى الأمازيغية في تونس جنوباً، وكل منزل له مدخل عبر باب خشبي كبير تلج من خلاله إلى غرفة صغيرة تسمى في تونس السقيفة

■■■

الانهيارات الصخرية المتكررة دفعت السلطات إلى إغلاق القرية أمام السكان المحليين وإغلاق بعض المرافق الترفيهية الموجودة بها، وإخلاء جميع سكانها

■■■

خلال التجول في أغلب الأزقة الضيقة لتلك القرية، لا ترى حركة فيها ولا تسمع أصواتاً سوى صفير الرياح وطقطقة أبواب المنازل

وأخيراً

تنويعات خميس خياطي

معن البياري

لا يُحيط وصفُ خميّس خياطي ناقداً سينمائياً بكلّ ما فيه. إنه، في عينٍ أوسع، باحثٌ في السينما أيضاً. وإذا استشعرْنا تزيّداً في القول إنه «منظّر» في الكتابة عنها ودرْسها، ففي الوُسع أن يُقال إنه صاحب نظرةٍ، أو منظورٍ، فيها. وإلى هذا وذاك، هو ذوّاقة، وصحفي، ورجل إعلام واتصال وتواصل، فقد تعدّدت الإذاعات والتلفزات والمجلّات والصحف العربية والفرنسية. وبذلك، يحضُر في إهاب الباحث الدارس، المنقّب المنهَج. وفي موضع آخر، تراه متخفّفاً من هذا اللباس، فيكون صاحب الصنعة الصحفية المحضَة، السريعة من دون تسرّع، الطلْقة بلا ارتجال، البسيطة من دون خفّة، المتباسِطة من دون «خوشبوشية». وذاك كتيبٌ له، في نحو 80 صفحة من القطع الصغير، كتبَه في 1978، (إبّان مُقامه في باريس من نهاية الستينيّات إلى مطالع التسعينيّات)، ونُشر في القاهرة في 1982، سمّاه «النقد السينمائي»، يؤالِف فيه بين بعض الأكاديميّة وشيءٍ من العدّة المنهجية وكثيرٍ من الألفة مع قارئه الذي يتزوّد فيه بما يلزَم أن يعرفَه عن السينما «فنّاً جماعياً» وصناعةً ومنتوجاً اقتصادياً وأداةً معرفيةً (ليست تثقيفيّةً أو ثقافيّة بالضرورة)، وعن مُشاهد الأفلام وما يريد، وعن الناقد كيف يصير ناقداً (نزيهاً)، فعيّن له 11 مؤشّراً (أو شرطاً؟)، فجاء كتيّباً على ذكاءٍ واضح، سيّما وأن النقولات التي تضمّنها، على قلّتها، من مُنتجين ونقّادٍ ومخرجين وأهل إعلام، بالغة الجاذبيّة.

ومن أنفع ما صادفتُ في هذا النصّ الذي ستحبُّه، لو طالعتَه، أن صاحبَه يُخبرك فيه بأنه ليس في العالم مدرسةٌ يتخرّج منها نقّاد السينما، فـ«مدرستُهم الوحيدة الحياة وحبّ السينما وما يمكن تسميته الجنون الثقافي». ويقول لك أيضاً إن الناقد السينمائي صحفي قبل أن يكون ناقداً، ووسيطٌ بين ميادين حيويّة بالنسبة للعمل السينمائي، وليست هذه الوساطة عملاً سهلاً. وأميلُ إلى أن خميّس خيّاطي الذي ودّع الدنيا في بلده تونس الأربعاء الماضي عن 78 عاماً ظلّ، في مشاغله النقدية والإعلامية، في السينما والمنتوجات السمعية والبصرية، وفي أبحاثه ومتابعاته الصحفية ومحاوراته، وفي المقابلات معه، ظلّ وفيّاً، إلى حدٍّ كبير، للمنظور الرحب الذي صاغه في كتيّبه المبكّر ذاك، وإنْ مع أخذِه بما جدّ مما تطلّبته، من لغةٍ ومعرفةٍ وأدوات تحليل، التطوّراتُ التقنيّة والتواصليّة الهائلة في العقود التي تلت كتابته نصّه، المكثف الممتلئ، ذاك.

وإذا كانت كتابات خميس خياطي في غير صحيفةٍ ودوريةٍ عربية قد عرّفت قرّاءه بمزاجه النقدي وأسلوبه في التناول (كتب كثيراً بالفرنسية أيضا)، سيّما في أسبوعية «اليوم السابع» الباريسية (1984 – 1991)، والتي قال لصديقنا ناجح حسن («الرأي» الأردنية، 2009) إنه مدينٌ كثيراً لها، «بأنها كانت نوعاً فريداً في العمل الصحفي»، فإن كتابَه عن سينما صلاح أبو سيف، أقلّه كما قرأنا طبعته العربية الموجزة (صدر في القاهرة في 1995 في 130 صفحة) يقدّمه دارساً، فالكتابُ أصلاً أطروحة دكتوراة في الاجتماع في باريس (بإشراف أنور عبد الملك)، صدر بالفرنسية في 650 صفحة في 1990. وقد أخبر ناجح (في دبي) بأن اختيارَه هذا يعود إلى «كثافة» إنتاج أبو سيف السينمائي وتنوّعه، ولأن «أفلامَه تشتمل على صورةٍ موجزة، لكنها مكثّفة عن الإيقاع اليومي في حياة الإنسان المصري بكل شرائحه الاجتماعية». وقد جاء على أسبابه هذه، وغيرِها، في مقدّمة كتابه الذي يحضرُ فيه صاحبَ اجتهادٍ في التحليل السوسيولوجي، المتّصل بالتاريخي، لأفلام سينمائية. ويكتّب في واحدةٍ من خلاصاته إن من الممكن تسجيل التاريخ الاجتماعي لبعض أحياء القاهرة من خلال أفلام صلاح أبو سيف الذي يراه «الباحث» خياطي التفتَ إلى السينما في جانبها الواقعي، أي «بإبراز المشاعر الإنسانية والأحداث الاجتماعية وتفسيرها من خلال مفهومه للسينما في خدمة المجتمع». على أن «واقعية» أبو سيف ليست نقلاً موضوعيا للحقيقة. ويحاجج المؤلف نقاداً رأوا ثبات البنية الأساسية في أفلام مخرج «الفتوة» (أو كثيرٍ منها)، مع عدم تحقيق أي تغيير في الهيكل العام للفيلم، نوعاً من سكون الحركة وافتقاد الدينامية، وبالتالي، انتفاءً للواقعية، فيذهب إلى أن هذا خطأ «فهذا الثبات البنيوي يمثل إطاراً يجد فيه صلاح أبو سيف وعاءً للمقصد الاجتماعي».

> كان خميس خياطي شعلةً نشطة في «جنونها» الثقافي. تتنوّع طبقات كتاباته وتآليفه، لكنها تتقاطع في الولع بالجميل والعميق من السينما

أياً كان الحال... كان خميس خياطي شعلةً نشطة في «جنونها» الثقافي. تتنوّع طبقات كتاباته وتآليفه، لكنها تتقاطع في الولع بالجميل والعميق من السينما. رحمه الله.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**